



With thanks to the Schimmel Family for their generous sponsorship of Covenant & Conversation, dedicated in loving memory of Harry (Chaim) Schimmel.

The translation to Arabic was made possible through the generous funding of The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism and the generous donation of Mr. Myron Joshua from Kfar Etzion.

"تروماه" هو النصّ الأسبوعي السابع من كتاب "شموت" (سفر الخروج) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الخامس والعشرين وينتهي بالآية التاسعة عشرة من المقطع السابع والعشرين.

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

الْبَيْتُ الَّذِي نَبْنِيهِ مَعًا

تثير سلسلة النصوص الأسبوعية التوراتية التالية، وهي "تروماه"، و"يَصْفِيهِ"، و"كِي تَسَا"، و"فَيَقْهِيل"، و"يَقُودِي"، الحيرة من عدّة وجوه. فهي تبدأ بعرض مُفَصَّلٍ لبناء "مِشكان"، أي بيت العبادة المتنقّل الذي بناه بنو إسرائيل وحملوه معهم في الصحراء. وتريد وصف هذا البناء في التوراة بتفصيلٍ مستفيضٍ وشامل، حتّى يكاد يشغلُ الثلث الأخير كلّ من سفر الخروج. فلماذا كلّ هذا الإسهاب؟ ولماذا هذا التركيز على أدقّ التفاصيل؟ فالـ"مِشكان" لم يكن إلّا بيتًا مؤقتًا لحلول الـ"شُخِينَاه" (أي السكنينة الإلهية)*، أي الحضور الإلهي بين الناس، والذي سيُستبدّل فيما بعد بالهيكل المقدّس، أي "بيت همقداش/بيت المقدس"، في أورشليم القدس.

علاوة على ذلك، لماذا تُردّ تفاصيل بناء الـ"مِشكان" أصلًا في سفر الخروج؟ إذ يبدو أنّ المكان الطبيعيّ لورود تلك التفاصيل هو في سفر اللاويّين، المُكرّس في معظمه لطقوس العبادة التي كان الكهنة اللاويّون يؤدّونها في الـ"مِشكان" وللقرابين التي قُدّمت فيه. أمّا سفر الخروج فيمكن أن يُعنّون بـ"ميلاد شعب"؛ إذ يتناول قصّة تحوّل بني إسرائيل من عائلة إلى شعب، ورحلتهم من العبوديّة إلى الحرّيّة، وهو يبلغ ذروته عند التطرّق إلى العهد الذي أبرمه الله عزّ وجلّ مع شعبه على جبل سيناء. فما علاقة الـ"مِشكان" بكلّ ذلك؟ ألا يبدو إنهاء السفر بهذا الموضوع غريبًا بعض الشيء؟

إنّ الجواب عن سبب ورود تفاصيل بناء الـ"مِشكان" في سفر الخروج هو عميق كما يبدو لي. فلنسترجع أوّلًا تاريخ بني إسرائيل حتّى تلك المرحلة، الذي كان سلسلةً طويلةً من الشكاوى. فقد تذرّوا بعد أن تدخل نبيّ الله ورسوله موسى/موسى أوّل مرّة لمحاولة تحريرهم من العبوديّة في مصر، لأنّ أوضاعهم ساءت بدلًا من أن تتحسن. وبعد ذلك، قالوا له عند بحر سوف (أي البحر الأحمر):

*ملاحظة توضيحية من المُترجم: مصطلح الـ"شُخِينَاه" (السكنينة) يُشير في التراث اليهوديّ إلى حضور الله عزّ وجلّ المتجلّي بين الناس. ويُمكن للقارئ المسلم أن يستأنس بالمقارنة مع الآية القرآنية: "ونحنُ أقربُ إليه من حبل الوريد" (سورة ق، الآية 16)، التي تُصِفُ القُرب الإلهي الذي يُلازم الإنسان ويُحيط به.

الْبَيْتُ الَّذِي نَبْنِيهِ مَعًا

"أَمِنْ عَدَمِ الْقُبُورِ بِمِصْرَ، أَخَذْتَنَا لِنَمُوتَ فِي الْبَرِّ، مَاذَا صَنَعْتَ بِنَا، إِذْ أَخْرَجْتَنَا مِنْ مِصْرَ؟ أَلَيْسَ هَذَا الْقَوْلُ، الَّذِي قُلْتَاهُ لَكَ بِمِصْرَ قَائِلِينَ، دَعْنَا نَخْذُمُ الْمِصْرِيِّينَ، فَإِنَّ خِدْمَتَنَا لَهُمْ، أَصْلَحَ لَنَا مِنْ مَوْتِنَا فِي الْبَرِّ؟"، كما ورد في الآيتين الحادية عشرة والثانية عشرة من المقطع الرابع عشر من سفر الخروج.

وبعد أن عبروا البحر واصلوا التذمّر: مَرَّةً بسبب نقص الماء، ثم لأنّ الماء مُرٌّ، ثم من نقص الطعام، ثم من نقص الماء مَرَّةً أخرى. ثم لم تمضِ سوى أسابيع قليلة على حادثة الوحي على جبل سيناء، حيث كانت تلك المَرَّة الأولى والوحيدة في التاريخ التي يتجلّى فيها الله عزّ وجلّ لشعبٍ بأسره، حتّى صنعوا عَجَلًا ذَهَبِيًّا. فإذا لم تُنتج عن هذه المعجزات غير المسبوقة استجابة ناضجة من الشعب، فما الذي يُمكن أن يُحقّق ذلك إذن؟!

عندئذٍ بدا وكأنّ الله عزّ وجلّ يقول لهم: فَلْتَبْنُوا شَيْئًا مَعًا، وكان هذا الأمر الإلهي البسيط كافيًا بتغيير مسار بني إسرائيل؛ فخلال عمليّة بناء الـ"مِشكان" بأكملها لم تكن هناك أيّة شكوى. فقد تبرّع بعض الناس بالذهب والفضّة والنحاس، وقَدّم بعضهم الآخر الجلود والستائر، وبذل آخرون وقتهم وساهموا بمهاراتهم. لقد قدّم بنو إسرائيل الكثير واندفعوا بحماسٍ عظيم لبناء الـ"مِشكان"، حتّى أنّ نبيّ الله ورسوله موشيه اضطرّ في النهاية أن يأمرهم بالتوقّف عن العطاء. وعندما نتأمّل ما حدث، تتجلّى أمامنا حقيقةً بالغة العمق: ليس ما يفعله الله عزّ وجلّ من أجلنا هو الذي يُغيّرنا، بل ما نفعله نحن من أجل الله عزّ وجلّ.

فطالما أنّ حَلَّ كلّ أزمة كان يتحقّق بواسطة المعجزات التي يأتي بها نبيّ الله ورسوله موشيه، سيظلّ الشعب في حالة تبعيّة، وستكون استجابتهم التلقائيّة هي الشكوى. أمّا إذا أرادوا أن ينضجوا ويبلغوا مرحلةً يتحمّلون فيها المسؤولية، فعليهم أن يتحوّلوا من مُجَرَّد مُتلقّين سلبيّين لبركات الله عزّ وجلّ إلى مشاركين فاعلين. كان لا بدّ أن يُصبح الشعب "شركاءً" لله عزّ وجلّ في مسيرة الخلق، كما ورد في باب الشّباب 10 أ. ولعلّ هذا ما قصده الحكماء حين قالوا: "لا تدعُوهم أبناءك، بل بنّائك" كما ورد في باب "بَرَخوت" 64 أ. فعلى الناس أن يُصبحوا بنّائين مُبدعين إن أرادوا أن ينتقلوا من الطفولة إلى النضج، ومن الاتكال على الآخرين إلى تحمّل المسؤولية.

إنّ الديانة اليهوديّة هي نداء الله عزّ وجلّ إلى الإنسان ليتحمّل المسؤولية. فهو لا يُريد منّا أن نتكل على المعجزات، ولا أن نبقى أسرى الاعتماد على الآخرين. بل على العكس تمامًا: إنّ الله عزّ وجلّ يريدنا أن نصبح شركاءه، مع إدراك أنّ كلّ ما لدينا هو منه، بينما في الوقت ذاته، لنا الخيار في ما نصنعه نحن بما لدينا بجهودنا الخاصة. وليس تحقيق هذا التوازن أمرًا يسهلًا؛ إذ يسهل أن نعيش حياةً اتكاليّة نعتمد فيها على الآخرين. وفي المقابل، يسهل أيضًا أن ننزل إلى وهم الغرور، فنقول: "إِنَّ قُوَّتِي وَعَظْمَةَ قُدْرَتِي، اكْتَسَبْتُ لِي هَذَا الْيَسَارَ"، كما ورد في الآية السابعة عشرة من المقطع الثامن من سفر التثنية.

يقوم تصوّر اليهودي للحالة الإنسانية على ركيزتين أساسيتين: أنّ الإنجازات التي يُحقّقها الإنسان تتحقّق اعتمادًا على جهوده الخاصة من جهة، وبفضل بركة الله عزّ وجلّ ومساندته من جهةٍ أخرى، فلا غنى عن أيّ من هاتين الركيزتين لنجاح الإنسان.

لقد كان بناء الـ"مِشكان" أوّل مشروعٍ كبيرٍ يضطلع به بنو إسرائيل معًا. وهو مشروعٌ استدعى إنجازَه أن يظهروا كرمهم ومهاراتهم، ومنحهم الفرصة لأن يُعيدوا إلى الله عزّ وجلّ شيئًا يسيرًا ممّا أغدقه عليهم. لقد أكسبهم هذا المشروع كرامة العمل والاجتهاد الخلاق، وتوجّ عمليّة ولادتهم كشعب، كما مثل أيضًا رمزًا للتحدي الذي سيواجههم في المستقبل: أن يكون المجتمع الذي دُعوا إلى بنائه في أرض إسرائيل مجتمعًا يُسهم فيه كلّ فردٍ بدوره. وقد عبّرت عن هذه الفكرة في عنوان أحد كتبي: "الْبَيْتُ الَّذِي نَبْنِيهِ مَعًا".¹

1. Jonathan Sacks, *The Home We Build Together: Recreating Society* (Bloomsbury Academic, 2009)

ومن هنا ندرك أنّ من أعظم تحدّيات القيادة أن تمنح الناس فرصة العطاء والمشاركة والإسهام. وهذا يتطلب من القائد أن يمارس شيئاً من ضبط النفس، أو ما يُطلق عليه في التراث اليهودي الصوفي "تسمتسوم"،* أي تقليص الذات، ليُتيح المجال للآخرين كي يمارسوا القيادة. وكما يُقال: "إذا كان القائد قائداً جيّداً، قال الناس: لقد فعل القائد ذلك. أما إذا كان القائد عظيماً، قالوا: لقد فعلنا ذلك بأيدينا".²

وهذا يُفضي بنا إلى التمييز الجوهريّ في السياسة بين الدولة والمجتمع. فالدولة تُمثّل ما يُنجز من أجلنا من خلال جهازها الإداريّ والتشريعيّ، عبر منظومة القوانين، والمحاكم، والضرائب، والإنفاق العام. أمّا المجتمع، فهو ما نقوم به نحن البشر من أجل بعضنا البعض، عبر الروابط المجتمعيّة، والمؤسّسات التطوّعيّة، والجمعيات الخيريّة، ومؤسّسات الرعاية.

وأنا أوّمن أنّ الديانة اليهوديّة تُبدي ميلاً واضحاً إلى تفضيل المجتمع على الدولة، لأنّها تُدرك أنّ الذي يُغيّرنا بالفعل هو ما نفعله نحن من أجل الآخرين، لا ما يفعله الآخرون من أجلنا، ولا حتّى ما يفعله الله عزّ وجلّ من أجلنا، وهذا هو الموضوع الرئيسيّ في سفر الخروج. ولعلّ النموذج السياسيّ الذي تُفضّله اليهوديّة، في اعتقادي، هو كما يلي: دولة صغيرة تقتصر وظيفتها على تقديم الخدمات الأساسيّة لمواطنيها، يقابلها مجتمعٌ كبيرٌ نابضٌ بالحياة، يتميّز أفرادُه بالعطاء والمبادرة والمسؤوليّة المشتركة.

إنّ الشخص الذي امتلك أعَمَقَ بصيرةً في طبيعة المجتمع الديمقراطيّ كان المؤرّخ والمنظر السياسيّ الفرنسيّ ألكسيس دو توكفيل. فحين زار أميركا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، رأى أنّ قوّتها تكمن فيما أسماه "فنّ الارتباط"، أي ميل الأمريكيّين إلى تكوين مجموعات تطوّعيّة لمساعدة بعضهم بعضاً، بدلاً من ترك الأمر برمّته للحكومة المركزيّة. وقد كان مقتنعاً اقتناعاً راسخاً أنّه لو كان الحال على غير ذلك، ولو اتّكل الأفراد على الدولة بالكامل، لشكّل ذلك تهديداً صريحاً للحرية الديمقراطيّة.

وفي واحدٍ من أكثر المقاطع المؤثرة في أهمّ مؤلفاته "الديمقراطية في أمريكا"، كتب ألكسيس دو توكفيل أنّ الديمقراطية مُعرّضة لشكلٍ جديد تماماً من أشكال الاستبداد، لم يوجد له مثيل في الماضي. وقد رأى أنّ هذا الخطر سيتحقّق حين يعيش الناس منعزلين في عالمهم الخاص، مكرّسين حياتهم لأنفسهم فقط، تاركين مهمّة السعي لتحقيق الصالح العام للحكومة. وهكذا وصف دو توكفيل الحياة حين يحدث ذلك:

"وفوق هذه الجماعة من البشر تقوم سلطةٌ هائلة، مُشرقة، تتولّى وحدها تلبية رغباتهم، والسهرة على مصائرهم. وهذه السلطة مطلقة، دقيقة، منتظمة، عقلانية، ولطيفة. وهي كانت ستكون أشبه بسلطة الوالد على أولاده، لو كان غايته أن تُعدهم لمرحلة الرجولة. ولكنّها، على العكس من ذلك، تسعى إلى إبقائهم في طفولةٍ دائمة. فهي لا تريد من الناس سوى أن يفرحوا ويطمئنّوا، شريطة ألا يفكّروا في شيءٍ غير الفرح. ومن أجل أن تُؤمّن لهم سعادتهم وتضمنها، تبذل هذه الحكومة جهداً كبيراً، ولكنّها تصرّ أن تكون الوكيل الوحيد، والحكم الأوحّد على تلك السعادة. فهي التي تُوفّر لهم الأمن، وتتنبأ باحتياجاتهم فتلبّيها، وتيسّر لهم متعهم، وتدير شؤونهم الأساسيّة، وتوجّه صناعاتهم، وتُنظّم انتقال الملكية وتقسيم الموارد، فلا يبقى لهم سوى أن يعيشوا حياة خالية من أيّ عناءٍ في التفكير ومن أيّ مشقة في تسيير أمورهم".³

*ملاحظة توضيحية من المترجم: مصطلح "تسمتسوم" (צמטסום) في التراث اليهوديّ الصوفيّ يعني "الانكماش" أو "التقليص"، وهو مفهوم يصف كيف حُجِبَ الله عزّ وجلّ حضوره الكليّ ليُفسح مجالاً لوجود العالم. ويُستخدَم هنا مجازاً لوصف القائد الذي يُقلّص من ذاته وسلطته ليمنح الآخرين مساحةً للمبادرة والمشاركة.

2. Attributed to Lao-Tzu. (منسوب إلى لاو-تسو)

3. Alexis De Tocqueville, *Democracy in America*, abridged and with an introduction by Thomas Bender (The Modern Library, 1981), 584.

لقد كتب توكفيل هذه الكلمات في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، غير أنني أشعر بالقلق من أنّ بعض المجتمعات الأوروبية على وشك أن تصبح على هذه الشاكلة: الدولة تتولى كل شيء، والمجتمع غائب، وكلّ الخيوط في يد الحكومة، وروابط التضامن بين الناس تكاد أن تنقطع.⁴

لم يكن توكفيل كاتباً دينياً، ولم يُشر إلى الكتاب المقدس اليهودي، لكنّ الخوف الذي كان يساوره هو الخوف ذاته الذي تمّ التعبير عنه في سفر الخروج. فعندما تقوم سلطة مركزية، حتّى ولو كانت هذه السلطة هي الله عزّ وجلّ نفسه، بكلّ شيء بالنيابة عن الناس، فإنّهم يبقون في حالة من الجمود وتوقّف النمو، حيث يشتكون بدل أن يعملوا، ويستسلمون سريعاً لليأس. فإذا غاب قائدهم، وهو في حالتنا نبّي الله ورسوله موشيه، فإنّهم يرتكبون حماقاتٍ شديدة، وقد كان أفضح ما ارتكبه بني إسرائيل هو صنْع العجل الذهبيّ من أجل عبادته.

ولا حلّ لهذا المأزق إلّا بأن يُصبح الناس شركاء في صناعة مصيرهم، وبأن يُبنوا معاً مشروعاً مشتركاً، وأن يُشكّلوا فريقاً واحداً بحيث يُدركون أنّهم ليسوا عاجزين، بل يتحلّون بالمسؤولية اللازمة، وبأنّهم قادرون على العمل المشترك. وهكذا يبدأ سفر التكوين بالحديث عن أنّ الله عزّ وجلّ خلق الكون بيتاً للإنسان، وينتهي سفر الخروج بالحديث عن الإنسان وهو يبني الـ"مِشكان" الذي يُمثّل بيتاً للحضور الإلهي.

ومن هنا يتجلّى المبدأ الجوهريّ في الديانة اليهوديّة: أنّنا مدعوّون لنكون شركاء لله عزّ وجلّ في الخلق. ومن هنا أيضاً نستخلص هذه النتيجة المنطقية: أنّ القادة لا ينبغي لهم أن يُنجزوا العمل بالنيابة عن الناس، بل عليهم أن يُعلّموا الناس كيف ينجزون أعمالهم بأنفسهم. فليس ما يفعله الله عزّ وجلّ من أجلنا هو ما يمنحنا الكرامة والمسؤولية، بل ما نفعله نحن من أجل الله عزّ وجلّ.

4. هذا لا يعني أنه لا دور للحكومات، أو أن نترك كل شيء للجمعيات التطوعية. بل العكس تماماً: هناك أمور، من حفظ القانون إلى الدفاع عن البلاد، ومن ترسيخ المعايير الأخلاقية إلى التوزيع العادل للموارد الضرورية لحياة كريمة، لا تستطيع الحكومات تحقيقها سوى هي وحدها. ولكن المعضلة الجوهرية هي إيجاد التوازن الصحيح بين دور الدولة ومسؤوليات المجتمع.

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

Sponsored by The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University and the generous donation of Mr. Myron Joshua from Kfar Etzion



Jonathan Sacks
THE RABBI SACKS LEGACY

Facebook Twitter Instagram YouTube | RABBISACKS.ORG